روضة الحكايات!!
(١٨)

أولُ قاضٍ للقضاة..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في رِحابِ المدرسةِ الشرعيّةِ

ضمن فعاليات المدرسة الشرعية مسابقاتٌ ثقافيةٌ يَحضرُها الطلابُ و أولياءُ أمورهم ، إضافة إلىٰ بعض العلماءِ والأكاديميين .

وعادةً ما تُستدعىٰ لجنةٌ مؤلّفةٌ من بعضِ العلماء ، حيث يتدارسون قبل أيامٍ مسألةَ المسابقةِ ، والجوائزِ التي ستوزَّع علىٰ الفائزين ، والأسئلةِ التي ستُلقىٰ علىٰ الطلابِ .

... . وفي كلّ عامٍ يُعلنُ عن هذه المسابقةِ في مساجِدِ البلدةِ ، وفي المعاهدِ الشرعيةِ ، و بين المثقفين ،... وتَجري منافساتٌ شديدة ، ويكون حَفْلاً مباركاً...

ومنذ أكثرَ منْ شَهرٍ تَحدَّثَ خطيبُ مسجد النوري ـ في الخطبةِ الثانية ـ عن المسابقةِ التي ستَجري هذا العام ، وشجَّعَ الطلابَ علىٰ الاشتراكِ فيها ، وحَضَّ الأغنياءَ علىٰ التبرُّعِ لذلك المشروعِ ، واستشهد بقولِ الله تعالىٰ : ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج : ٧٧] .

وقال : بما أنّ المسابقاتِ الثقافيةَ تعودُ بالنفعِ علىٰ الناسِ ، ويستفيدُ منها الرجالُ والنساءُ والأولاد ، فهذا يعني أنها عملٌ مبرورٌ بإذنِ الله تعالىٰ .

واستدلَّ علىٰ ذلك أيضاً بقوله تعالىٰ : ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

وقبيلَ أيامٍ من موعدِ المسابقةِ شُكّلتْ لجنةٌ أكاديميةٌ لوضْعِ الأسئلةِ ، وعُيِّنَتْ أخرىٰ للإشرافِ علىٰ أعمالِ المسابقة .

وكُلّفَ مديرُ المدرسةِ ومعه بعضُ الأساتذةِ الأمناءِ بإحضارِ الهدايا التي ستوزَّع علىٰ المتسابقين .

ولما حانَ موعدُ المسابقةِ ، أَقبْلَ الطلابُ إلىٰ المدرسةِ ، وراحوا يتحدّثون عن بعضِ الأسئلةِ التي يُمكنُ أن تُطْرَحَ عليهم...

بينما تَوافَدَ جمعٌ كبير من الرجال والنساءِ والأطفال إلىٰ القاعةِ الكبيرةِ في المدرسة الشرعيةِ...

وفي تمامِ السادسة مساءً ، وقفَ مديرُ المدرسةِ أمامَ (الميكرفون) وألقىٰ علىٰ الحضور السلامَ ، ورحَّبَ بهم أشدَّ ترحيبٍ ، وكان مما قال :

أيها الأحبابُ الكرامُ! كما في كلِّ عامٍ نجتمعُ في رِحابِ هذه القاعةِ ، وذلك بمناسبة حضورِ احتفالٍ تنافسيٍّ دعَوناه منذ سنوات (بالمسابقةِ الثقافيةِ العامّة) وكان هذا الاحتفالُ مجرّدَ فكرةٍ ، لكنّ إصرارَ بعضِ الأفاضلِ عليها جَعَلَها تتحوّلُ إلىٰ

تَظاهُرةٍ ثقافيةٍ ، وحاولنا عَبْرَ السنوات التي مرَّتْ أن نَتَلافىٰ الأخطاء... ، ونحن اليومَ سعداءُ بهذا اللقاءِ... (فما كانَ لله فهو المتّصل ، وما كانَ لغيره فهو المُنفصِل)...

ثم قال : أُرحّبُ بالعلماءِ المشاركين في اللجانِ المشرفة علىٰ سيرِ عمل المسابقة ، ثم حدَّدَ أسماءَهم... وتمنّىٰ من الله لهم دَوامَ الصّحةِ والتوفيقِ...

* * *

obeikandl.com

من مراسم الاحتفال

وفي بدايةِ الاحتفالِ قَدَّمَ المديرُ طالباً من طلابِ المدرسة ، وعَرَّفَ عن اسمِه و ذكر أنه في الصفِّ الأول الثانوي ، وأنه متفوّقٌ في دروسِه ، وأنه يَحْفَظُ كتابَ اللهِ كلَّه ، وأنه مثالٌ للأخلاقِ الحَميدةِ ، ثم دعا الجميعَ إلىٰ استماعِ تلاوتِه للقرآنِ الذي يَنسابُ علىٰ لسانِه عَذْباً جميلاً..

وتَقَدَّمَ (بدر الدين) من (الميكرفون) ، ورتَّل الآياتِ التي في أواخِرِ سورة آل عمران... فسالتِ الدموعُ علىٰ الخُدودِ رَهْبةً وخَشْيَةً من الله ، وفرَحاً من كثرةِ الشوقِ إليه سبحانه وتعالىٰ .

ثم بدأتِ المسابقةُ بين الطُّلابِ ، وكان التنافُسُ

علىٰ أَشَدِّهِ ، إلىٰ النهايةِ ، حيث تَعادَلَ (بدرالدين) مع (سيّد) فيما يَختصُّ بالأسئلةِ الماضيةِ ، لكنهما لم يتساويا فيما يَتعلّق بالسؤالِ الأخيرِ .

فقد سأل الدكتور (سليم) السؤالَ الأخيرَ : مَنْ هو أولُ مَنْ أُطلِقَ عليه لَقَبُ (قاضي القضاة) ؟!

فتوقّف (بدر الدين) عن الإجابةِ ولم يَعرفْ ، بينما قال (سيّد) : إنه أبو يوسف ، يعقوبُ بن إبراهيم ، صاحبُ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالىٰ... لذلك عُدَّ (سيّد) هو الفائزَ الأولَ في الدورةِ...

... وبعدَ توزيعِ الجوائزِ علىٰ الفائزين ، انفضَّتِ الندوةُ والجلسةُ... وكانت سهرةً ممتعةً ومفيدة .

وفي الطريقِ إلىٰ البيتِ سألَ (حسين) والدَه : ومَنْ هو أبو يوسف ؟ وكأني لمْ أَسمَعْ به قَطُّ... ،

ولماذا لا يُخَصِّصُ المعهدُ دراسةً جادّةً عن أبي يوسف ، وتُلقىٰ محاضرةٌ عامة ؟

وانبرىٰ لتلك المهمّة (سعد) ، حيث عَكَفَ في قاعاتِ المكتبةِ العامة ، وراحَ يقرأ كلَّ ما كُتِبَ عن قاضي القضاة ، ولما أَتَمَّ عملَه ، عَمَدَ إلىٰ تهذيبِه وترتيبِه ، وكانت محاضرةُ يوم السبت تدورُ حولَ دراسة حياة أبي يوسف .

* * *

openkandl.com

فمَنْ هو أبو يوسف ؟

في بداية المحاضرةِ ، قَدَّمَ (سعد) تعريفاً مختصَراً بقاضي القضاة ، جاء فيه : في مدينةِ الكوفةِ ، وفي سنة (١١٣هـ) وُلِدَ الإمامُ (يعقوب بن إبراهيم) .

وكانت عائلتُه فقيرةً جداً ، لكنْ هلْ يمنعُ ذلك الإمامَ عن تَحصيلِ العلوم ؟

أبداً ، فقد انكبّ علىٰ العلومِ منذ الصِّغَرِ ، فتعلَّمَ القراءةَ والكتابة ، وحَفِظَ القرآنَ الكريمَ ، وحَضَرَ عند كثيرٍ من العلماء ، خاصةً علماءَ الحديث .

والذي ساعدَه علىٰ ذلك ما أنعمَه اللهُ عليه من ذاكرةٍ قويةٍ وحافِظَةٍ واعية .

وكان للإمامِ أبي حنيفةَ الفَضْلُ في تَسْليكِه طُرُقَ العلمِ الصحيحةَ ، بحيث أَخَذَ بيدهِ إلىٰ حَلَقاتٍ يَجلسُ فيها كبارُ العلماء ، وأنفقَ عليه المالَ ، وطَلَبَ منه أن يَتفرّغَ لتحصيلِ العلومِ .

وبالفعل ، كان (أبو يوسف) خَيرَ تلميذٍ لأبي حنيفةَ ، حيث لازمَهُ ملازمةً كاملةً زُهاءَ سبعةَ عَشَرَ عاماً!!

هذا إضافة إلىٰ أَخْذِه العلومَ عن علماءَ فَطاحِلَ ، أمثالِ : (يحيىٰ بن سعيد) و (الحجّاج بن أرطأة) و (محمد بن إسحاق) و (سفيان بن عُيَيْنَة) وغيرهم...

* * *

مع كبارِ العلماء... ومع الخلفاء

وشاءَ اللهُ تعالىٰ أن يكونَ في مَنْصِبِ قاضي القضاة ، لذلك كان (هارون الرشيد) يَصْحَبُهُ معه إلىٰ الحجِّ ، فكان (أبو يوسف) يستغلّ ذلك بأن يَلتقيَ بإمامِ دارِ الهجرة (الإمام مالك) ، ولذلك سَمِعَ منه مَرْويّاتِ (الموطّأ)... وناقشَه في كثيرٍ من المسائل الفقهيةِ ، حتىٰ إنه عَدَلَ ـ في بعضِ المسائلِ ـ من قولِ إمامِه (أبي حنيفة) إلىٰ قولِ الإمام مالِك ، وهذا ما جَعَلِ (الحافظَ ابن كثير) يقول عنه : (أبو يوسُفَ معروفٌ بالإنصافِ والرجوعِ إلىٰ الحق) .

وكذلك فقد التْقَىٰ (أبو يوسف) بالإمامِ أحمد بن حنبل ، فبدَلَ أَنْ يأخُذَ عنه العلمَ ، إذا بالإمام أحمد يُصبحُ تِلميذاً عندَه ، لذلك وَرَدَ في

ترجمةِ الإمام أحمد قولهُ : (أول ما طلبتُ الحديثَ ذهبتُ إلىٰ أبي يوسف القاضي ، ثم طلبْنا بعدَه ، فكتبْنا علىٰ الناسِ) .

وأما علاقتُه بالخلفاء ، فَتتَلخّصُ في أنه تولّىٰ مَنْصِبَ القضاءِ فترةً طويلةً ، شَمِلَتْ خلافةَ الخليفةِ المَهْدي ، وابنَه الهادي ، وامتدّتْ حتىٰ خلافةِ هارون الرشيد ، فقد بقيَ في ذلك المَنْصِبِ قرابةَ عشرينَ عاماً ، وهذا دليلٌ علىٰ سهولةِ تَعامُلِهِ مع الآخرين ، وخاصةً الحكّام...

وتؤكّدُ المصادرُ الموثوقةُ أنّ سببَ إحداثِ مَنْصِبِ (قاضي القضاة) هو اتّساعُ رُقْعةِ الدولةِ الإسلاميةِ ، وكَثْرَةُ مَشاغِلِ الخليفةِ ، مما أدىٰ إلىٰ إحْداثِ هذا المَنْصِبِ ، وكان أولُ مَنْ أُطْلِقَ عليه هذا اللقبُ... وأولُ مَنْ مارَسَ مهمّةَ تعيينِ القضاةِ.. ومحاسبتِهِمِ وعَزْلِهِم... . هو قاضي القضاة أبو يوسف .

نشاطاتٌ أخرىٰ!!

تابع (سعد) حكايتَه عن الإمامِ أبي يوسف ، فقال :

ولمْ تَقْتصِرْ مَهامُّ أبي يوسفَ علىٰ مُمارسةِ القَضاء ، بل عَمِلَ في مَجالاتِ التدريس و الإفتاءِ ، والبَحْثِ عن أدلّةِ الأحكام ، لذلك صَنَّفَ كتباً كثيرةً ، قيل إنها زادتْ علىٰ (٣٠) كتاباً ، لكنْ ضاع أكثرها أو غَرِقَ فيما غَرِقَ في أنهارِ العراقِ ، وذلك أثناء غَزْوِ التتار والمَغولِ والصّليبيين لأراضي الدولةِ الإسلاميةِ .

ومما وَصَلَ إلينا من مُصَنَّفاتِه ، كتابُ (الآثار) : وهو يحوي (١٠٠٠) حديثٍ من أمهاتِ

المَسائل في الفقه ، وكتابُ (الخراج) : وهو رسالةٌ كتبَها إلىٰ (هارون الرشيد) ، بَيَّنَ فيه ما يدورُ حول التصرّفات الماليةِ وأحكامِها ، وكتابُ (الردّ علىٰ سيرة الأوزاعي) ، بَيَّنَ فيه مسألةَ تَعامُلِ المسلمينَ مع غيرهم ، من أهلِ الحربِ والمعاهدين...

ويعترفُ له الداني والقاصي بأنه عالمٌ متبحّرٌ في علمِ الحديثِ ، وكذلك في علوم الفقهِ ، ومثلُهما في علمِ التفسير ، وعلم السِّيَرِ والمَغازي ، ويكفي دليلاً علىٰ ذلك أنّ مَنْ تَتَلْمَذوا علىٰ يَديه ، يُعَدُّون من كبارِ العلماء ، أمثال (زُفَرَ) و (محمد بن الحسن الشيباني) و (ربيع بن الجراح) و (أسدِ بنِ الفرات) و (يحيىٰ بن مَعِينٍ) و (أحمدَ بنِ حَنْبَل)..!!

وكيف لا يكونُ لأبي يوسف تلاميذُ كثيرون... وقد عُرِفَ بالأخلاقِ الفاضلةِ... والسلوكِ الحَميدِ ،

حتىٰ إنه رَحِمَه الله تعالىٰ كان يُعامِلَ تلاميذَه وكأنَّهمْ أولادُه.. ، إلىٰ درجةِ أنه كان يتراجَعُ عن بعضِ ما أفتىٰ ، وذلك إذا اقتنعَ برأيِ أحدِ تلاميذِه ، فالشّعارُ المحبَّبُ إليه ، والذي قاله عند وفاتِه : (كلُّ ما أَفْتَيتُ به رَجَعْتُ عنه إلىٰ ما يُوافقُ كتابَ اللهِ وسنةَ رسولهِ ﷺ...)!!

* * *

من أعظم الليالي

ولما كانتِ الليلةُ المباركةُ ، ليلةُ الجمعةِ الأولىٰ من شهرِ ربيع الأول ، وذلك سنةَ (١٨٢هـ) ، أَسْلَمَ الرُّوحَ الطاهِرةَ إلىٰ بارئها ، فصلّىٰ عليه (هارون الرشيد) إماماً بالمسلمين ، ودَفَنَه في مَقْبَرةِ قريش... رحمه الله... ونفعَنا بعلومِه.. والحمد لله رب العالمين .

* * *